

د. مفيد شهاب

الحزن الدفين لفراق الابن

لم أعد أضحك مثل كل الناس.. لم
أعد أفرح مثلهم.. وأصبح التجهم
حزناً وجزءاً من ملامحي.

هناك إنسان قد يستطيع أن يحول الهزيمة إلى انتصار.. والأيام العصبية إلى غد مشرق بالأمل.. قد يعصره الألم ويلفه الحزن.. ويغمد اليأس نصله فى روحه ونفسه فيقتلع الفرحة.. ولكنه يتملص.. يقاوم، يحاول.. يتحين الفرص فيقفز فوق المستحيل ويلقى بغيار الأيام المظلمة وراء ظهره.. وتتحول مرارة التجربة إلى ظلال تحجب عنه وجه الحدث القبيح ليطل بثوبه المزركش من جديد..

كان د. مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة الأسبق ذلك الإنسان.. ونعود معه لسنة ١٩٧١م.. فوجئ باعتقاله مع مجموعة من خيرة شباب مصر بسبب خلافات بين الرئيس السادات ومراكز القوى..

أحس بكرهية شديدة تكاد تقتلع أمامها كل القيم التي ترعرعت داخل نفسه وأقام عليها كيانه.. ماذا فعل حتى يكون مصيره السجن والتعذيب؟.. هل ضاعت سنوات الكفاح وراء قضبان السجن الحديدية الصماء؟

صرخات متسائلة.. اندفعت من صدره داخل زنزانته المظلمة.. أنين وأوجاع أطلت على لسانه فى احتجاج ورفض. ومن بين تضارب الأشياء أمام عينيه ومناهة البحث عن الحقيقة يسترجع مفيد تاريخه منقَّباً باحثاً فيه عن فعلة قد ارتكبها ويعاقب عليها الآن..

تذكر مفيد وهو يصارع بداخله الشك واليقين عندما خرج لأول مرة تاركاً بلده مصر ليتم تعيينه نائباً لمدير الإدارة القانونية للصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى تلك المنظمة العربية المتخصصة التى تتبع الجامعة العربية ومقرها الكويت.. هناك كانت تنظم الرحلات إلى الدول

النامية وتمنح قرضاً ومعونات لهذه الدولة للارتقاء بمستواها المعيشي.. وإعطاء المواطن حق الحياة الكريمة بدرجة يتوافر بها قدر من الإنسانية. عادت به الذاكرة إلى سنوات مضت حين قرر السفر إلى فرنسا سنة ١٩٥٧م للحصول على الدكتوراه بعد تخرجه في كلية الحقوق جامعة القاهرة، وكان الأول على جامعات القاهرة وعين شمس والإسكندرية.. كان همُّه الأول «العالم» وحماية البشر في الدولة النامية الضعيفة. ويستمر المشوار ليحصل مفيد على جائزة أحسن رسالة دكتوراه من السوربون بفرنسا سنة ١٩٦٨م والتي تضمنت بين سطورها دور محكمة العدل الدولية وتغيير وخلق القانون الدولي من جديد.. من هنا دعا مفيد في رسالته إلى إقامة محكمة دولية تتبع الأمم المتحدة لحماية الدولة الضعيفة وحل مشاكلها في إطار الدستورية وحماية القانون.

وخلال السنوات التي قضاها د. مفيد بفرنسا وعاش فيها بالحي اللاتيني المتشبع بالثقافات المختلفة والفنون والسياسة.. استطاع أن يطل على الاتجاهات السياسية وينهل من كل مجالات الثقافة، خاصة أن الظروف بفرنسا كانت تهيئ له ذلك، فقد كان الطالب بفرنسا يمنح كل الامتيازات الممكنة واليسيرات ليرتاد المسارح والأوبرا.. عدة سنوات غيرت مفاهيم د. مفيد وشخصيته وأعادته كياناً جديداً..

استمر تدفق الماضي بتفاصيله وأحداثه أمام عيني مفيد وهو قابع في زنزانته.. يتلمس بيديه قضبانها الحديدية التي تفصل بينه وبين الحياة. وعادت به الذاكرة إلى سنة ١٩٦٨م حين قرر بعد عودته من فرنسا وفكر في عمل تنظيم سياسى للشباب أطلق عليه فيما بعد اسم «منظمة

الشباب» اشترك فيه الدكتور كمال أبو المجد والدكتور أحمد القشيري والدكتور عبد الأحد جمال الدين والدكتور حسين كامل بهاء الدين والدكتور محمود شريف والدكتور على الحفنى والدكتور عبد الرازق عبد الفتاح.. كان الجميع مسئولين عن إعطاء الشباب جرعة كبرى من الإحساس بالمسئولية تجاه بلده ووطنه مصر.. وعمل ندوات تثقيفية لهم حول السياسة الداخلية والخارجية لمصر وتنمية الوعي القومى لديهم.. وتم ترشيحه أميناً عاماً للمنظمة وخرج بذلك من حيز العمل الأكاديمي كدكتور بكلية الحقوق إلى حيز العمل العام المرتبط بحماس الشباب ورغبته فى خدمة وطنه.

ويتوقف تدفق الذاكرة لتعود به مرة أخرى إلى الواقع المرير وفشله فى معرفة السبب الحقيقى الذى دفع به وراء القضبان.. ذلك الواقع الذى يقتلعه من استغراق فى الدهشة والتعجب ويتسرب إلى روح مفيد وهو فى سجنه بصيص من الأمل عندما وجد أن إيمانه بوطنه وإخلاصه له كان دافعه الوحيد للعمل من أجل التضامن العربى وتأكيد دور مصر ومسئوليتها نحو هذا الفكر..

يرفع يديه بالدعاء وعيناه تتطلعان إلى السماء ويستجيب الله بعد سبعة شهور من اعتقاله وتحكم المحكمة ببراءته من أى فعلة ارتكبها!! وحتى الآن.. لا يعلم!

وأكدت المحكمة فى حيثيات حكمها مدى إخلاص د. مفيد شهاب وتفانيه فى خدمة وطنه.. ويخرج من التجربة أكثر رسوخاً وإيماناً.. ويندفع بكل قوته إلى الدفاع عن المظلوم ضد الظلم والظالم مهما كانت

صورته ومكانته .. أو زمانه .. لا يهم من المظلوم، أهو طفل صغير يعتدى عليه من هو أكبر منه بالضرب .. أم طالب معوق فى حاجة إلى كرسي متحرك أو طالب من الأقاليم يبحث عن مكانه بالمدينة الجامعية أو دور المغتربين .. وأصبحت محاربة الظلم عهداً وميثاقاً فى حياة د. مفيد لا يحيد عنه ..

وتسير الأيام إلى غد جديد فى حياة د. مفيد .. ولكن هل اكتفت الأقدار بما أعطت وبما أخذت؟

أبى القدر المتمرد أن يقف موقف المتفرج .. إنه أعطى الكثير .. ولكنه يريد الأعلى .. أشهر أنيابه من جديد .. مد يديه ليقطف الضحكة من على شفثيه .. اختار ابنه وهو فى عمر الزهور .. اعتصر قلبه حتى استنزف كل دمائه .. وماتت الفرحة داخله ورسم بعلاماته ملامح التجهم على ملامحه، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه ..

يقول د. مفيد يصف مشاعره .. سبعة عشر عاماً عمر ابني الراحل امتزجت فيها بضحكة طفلى وقفزاته عندما جاء إلى الدنيا وهو يحبو ويشب عن الطوق وينطق الكلمة الأولى «بابا» .. كان يأخذنى معه إلى دنيا هو أجمل ما فيها واندفع مع تساؤلاته الطفولية مع بدء النضج .. الآن بعد رحيله أصبحت أقل تعلقاً بالحياة وأقل أماناً لها ..

لم يعد د. مفيد يضحك مثل كل الناس .. تجهم الوجه وأصابت القلب التجاعيد وارتسمت علامات الحزن فأصبحت خطوطاً أساسية بملامح شخصيته ..

